المحاضرة الثامنة : عمار بلحسن

رؤية عمار بلحسن للوضع الثقافي في الجزائر:

يبدأ الباحث والمفكر عمار بلحسن تحليله للواقع الثقافي في الجزائر من فرضية رئيسية، وهي أن الثقافة الجزائرية تشكلت نتيجة لتداخل فكري ولغوي يعود إلى فترة الاستعمار. فقد ورثت الجزائر نوعين من الثقافة: الثقافة المكتوبة بالعربية والثقافة المكتوبة بالفرنسية، حيث تعكس كل منهما مرجعيات فكرية مختلفة؛ الأولى تنتمي إلى التراث العربي الإسلامي، بينما تستند الثانية إلى الثقافة الأوروبية الغربية، ممثلةً بالثقافة الفرنسية.

تتوافق هذه الرؤية مع ما طرحه الباحث غريد جمال، الذي أشار في مداخلته خلال ملتقى دولي بتيميمون (ولاية أدرار) إلى أن المجتمع الجزائري مقسم إلى مجموعتين ثقافيتين، لكل منهما نخبتها ومرجعياتها اللغوية والتاريخية، مما أدى إلى ظهور مشروعين ثقافيين مختلفين. ويعتبر بلحسن أن هذه الازدواجية الثقافية قد تكونت في بعض الأحيان كعنصر إثراء فكري، لكنها أيضاً ساهمت في تعميق الفجوة بين المثقفين الناطقين بالعربية ونظرائهم الناطقين بالفرنسية، حيث أدى غياب الحوار إلى ظهور انقسامات ثقافية داخل المجتمع.

الثقافة العربية في الجزائر: الامتداد والتجديد

يعتقد بلحسن أن الثقافة العربية في الجزائر لها جذور عميقة في التيارات السلفية والإصلاحية التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. هذه المرجعية لعبت دورًا مهمًا في إثراء مجالات الأدب والشعر والفن، حيث شهد الأدب العربي تحولات نوعية أدت إلى ظهور أنماط جديدة في السرد، متجاوزة الأشكال التقليدية. كما يوضح أن العلاقة بين الأدب الجزائري المكتوب بالعربية ونظيره المكتوب بالفرنسية تتراوح بين التفاعل والتواصل في بعض الأحيان، وبين القطيعة والصراع في أحيان أخرى. على سبيل المثال، يمكننا أن نرى تأثيرات متبادلة بين أعمال الطاهر وطار المكتوبة بالعربية وأعمال مُحَمَّد ديب المكتوبة بالفرنسية، كما أن الروائي عبد الحميد بن هدوقة استفاد من أعمال كاتب ياسين. لكن هذه العلاقة ليست خالية من التوترات، حيث ينظر البعض إلى اللغة الفرنسية كلغة استعمارية، بينما يعتقد بعض الفرانكوفونيين أن الاتجاه نحو العربية يسعى لتهميش الثقافات الشعبية والانفتاح على الحداثة الأوروبية. كما أن المثقفين المعربين يشعرون بالقلق من المرجعيات الغربية، معتبرينها امتدادًا للهيمنة الثقافية وتهديدًا للهوية الوطنية.

الثقافة الجزائرية في المهجر وتأثيرها المحدود:

يتناول بلحسن أيضًا الثقافة الجزائرية في المهجر، وخصوصًا في فرنسا، حيث برز عدد من المفكرين والأدباء الجزائريين مثل مُحَمَّد أركون، جمال الدين بن الشيخ، علي مراد، ومُحَمَّد حربي. ورغم التأثير الكبير الذي تركته هذه النخبة على الثقافة المغاربية بشكل عام، إلا أن صداها داخل الجزائر ظل محدودًا. ويعزو بلحسن هذه الظاهرة إلى النظرة السائدة بين المثقفين المعربين،

الذين يرون أن هؤلاء المفكرين ينتمون إلى السياق الثقافي الفرنسي، حيث يعملون في فضاء فكري أوروبي، مما يجعلهم بعيدين عن التيارات الثقافية الجزائرية المحلية.

المسرح، السينما، والفن التشكيلي: البحث عن هوية ثقافية

يشير بلحسن إلى الجهود البحثية والإبداعية التي تُبذل في مجالات المسرح، السينما، والرسم. فقد عمل عدد من المبدعين مثل عبد الرحمن ولد كاكي، عبد القادر علولة، وكاتب ياسين على تطوير مسرح جزائري يعكس هويتنا الوطنية والمغاربية. وفي عالم السينما، تألقت أعمال الأخضر حامينا، فاروق بلوفة، ومرزاق علواش، بينما قدم الفن التشكيلي إسهامات رائعة من أمثال مُحَمَّد أسياخم، مُحَمَّد خدة، وباية. لكن، على الرغم من هذه الجهود، تواجه هذه الفنون العديد من العقبات، مثل البيروقراطية، وتبعية الثقافة للسياسة، وغياب نخبة ثقافية موحدة، مما يعيق تفاعل هذه الأشكال التعبيرية مع بعضها البعض.

الأشكال الأدبية الأكثر انتشارًا:

يرى بلحسن أن القصة القصيرة، الرواية، والمسرح هي من أكثر الأشكال الأدبية التي تجذب الجمهور الجزائري، لأنها تعكس قضايا مجتمعية تمسّ مختلف الفئات. لقد لعبت هذه الأنواع الأدبية دورًا مهمًا في تقديم نقد عميق للمجتمع، متجاوزةً الخطابات التمجيدية لتصل إلى رؤية أكثر عمقًا وتحليلًا. كما أن الكتابة السردية في الجزائر قد تطورت من خلال تفاعلها مع الرواية العربية والعالمية، حيث تأثرت أجيال من الكتّاب الجزائريين بالتيارات الأدبية الحديثة، مما أضفى على النصوص الجزائرية طابعًا حداثيًا غنيًا ومتعدد الأصوات .

البحث العلمي في الجزائر: الواقع والتحديات

في عالم البحث العلمي، يبرز بلحسن أهمية تعزيز البحث الأكاديمي في الجزائر كخطوة حيوية نحو الانتقال من مجتمع استهلاكي إلى مجتمع منتج ومبدع. يتحدث عن تجربته كأستاذ في علم الاجتماع بجامعة وهران خلال السبعينيات والتسعينيات، حيث سعى لربط العلوم الإنسانية بالإبداع الأدبي من خلال انضمامه إلى مختبر "سوسيولوجيا الأدب" الذي أُسس في عام 1983.

لكن، لم تكن هذه الجهود خالية من التحديات الكبيرة، مثل نقص التنسيق بين الباحثين، وضعف الترجمة من اللغات الأجنبية، وهيمنة المناهج التقليدية على الدراسات الأدبية والفلسفية. ويشدد بلحسن على ضرورة تطوير الدراسات الأدبية من خلال اعتماد مناهج حديثة مثل التحليل السوسيولوجي النقدي، والانفتاح على المناهج المستلهمة من الفلسفة الماركسية والغولدمانية.

الأدب والرواية كأداة لفهم المجتمع:

يعتقد بلحسن أن الأدب، وبالأخص الرواية، هو مفتاح لفهم المجتمع الجزائري والمغاربي، حيث يعكس التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بدقة. هذا الرأي يتماشى مع وجهة نظر لوسيان غولدمان، الذي يرى أن الإبداع الأدبي هو تعبير عن التحديات التي تواجه المجتمعات في حياتها اليومية. لذا، يعتبر بلحسن أن الروائيين هم بمثابة علماء اجتماع في الميدان، حيث تمكنوا من تقديم تحليلات عميقة للمجتمع، كما يتضح في أعمال الطاهر وطار، ورشيد بوجدرة، ورشيد ميموني في الجزائر، وعبد الكريم غلاب، ومُحَمَّد شكري، والطاهر بن جلون في المغرب.

في تحليله العام، يسلط عمار بلحسن الضوء على التحديات الثقافية والبحثية التي تواجه الجزائر، مشددًا على ضرورة تجاوز الانقسامات الفكرية واللغوية، والانفتاح على الحداثة دون فقدان الهوية الوطنية. كما يؤكد على أهمية تعزيز البحث العلمي، ودور الأدب والفنون في تشكيل وعي مجتمعي نقدي، مما يسهم في بناء ثقافة متكاملة ومبدعة.